تحولات الثقافة والمثقف في عصر المابعديات والذكاء الصناعي والتحول إلى ما بعد الإنسان «1-3»

التقنيات كانت ولا تزال مؤثرة في الاقتصاد والإنتاج بل في النظم السياسية والدين وأنماط التدين أو الخروج عليه

عندما تتبلور مفاهيم ونظريات وآلة اصطلاحية جديدة لتحليل الظواهر الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية تظهر «القطيعة المعرفية»

مرحلة السيولة لا تزال انتقالية ريثما تتشكل الظواهر الجديدة من خلال الثورة الرقمية السريعة وبدايات الذكاء الصناعي وعالم الروبوتات

ظهور الفيروسات المتحورة كشف أن الحياة ليست قصراً على الإنسان كفاعل اجتماعي وسياسي وأن ثمة كائنات فيروسية لديها ردود أفعالها على التوحش الإنساني والاستغلال إزاء الطبيعة

انهيار نماذج التنمية التي اعتمدت على رأسمالية الدولة الوطنية أدى للعودة إلى الطريق الرأسمالي مع النيوليبرالية الوحشية والاستغلال المفرط للطبيعة

صدمة عالم الرقمنة والأناسة الروبوتية ستؤدى إلى حركية ما في اللاهوت والفقه وربما نهاية رجل الدين التقليدي النقلي

نبيل عبد الفتاح

بقلم : نبيل عبد الفتاح

يبدو لي من خلال متابعة الحقل الثقافي المصري، وفي العالم العربى والعوالم المتقدمة أن عمليات التغير السريعة بل وفائقة السرعة، تشير إلى ظاهرة بعضها مألوف، وبعضها الآخر جد غير مألوف، وصاعق فى تعبيره عن حجم التغير والتحول الاستثنائى فى التاريخ الإنسانى كله.

المألوف أن التحول وعمليات القطيعة مع ما هو سائد، بعضها نتاج للثورات التقنية من الثورات التكنولوجية الأولى إلى الثانية والثالثة التي أثرت في أنماط الإنتاج، ومنظومات القيم والسلوك الاجتماعي في مجتمعاتها، ومعها الثقافة السائدة، وتساهم في ذلك أيضا المدارس الفلسفية، والأدبية ونظريات العلوم الاجتماعية والقانونية وهندساتها، في التنظيم والضبط الاجتماعي، وفي المفاهيم، والنظريات المختلفة، في العلوم الإنسانية.

كانت التقنيات ولا تزال مؤثرة في الاقتصاد والإنتاج بل في النظم السياسية والأحزاب وفي الدين وأنماط التدين، أو الخروج عليه، وعلى التدين الوضعي، وعلى السلطات الدينية، وأيضا في الثقافة، وفق معناها الأنثربولوجي العام، وفق المفهوم التايلورى. كان التغير التكنولوجي يسبق التغير في الفلسفة، والقانون، والاجتماع والفنون والأدب، والمسرح والفنون التشكيلية مع أثر التكنولوجيا على الحياة اليومية.

من هنا كان التحول يحدث في الاقتصاد، والإنتاج والصناعة والزراعة، وينعكس على الحياة الاجتماعية، ومن خلال التفاعلات الاجتماعية، مع التغير وانعكاسه عليها تتشكل من خلال الفعل الاجتماعي والفعل السياسي ظواهر اجتماعية جديدة، بالإضافة إلى بعض الموروثات الاجتماعية التي تظل مستمرة، إلى حين أفولها، مع رسوخ المتغيرات الجديدة. من ثم كانت الثقافة تشهد تغيرات وظواهر جديدة مع استمرارية للسابق.

كان المفكر والمثقف والفنان والفيلسوف وعالم الاجتماع والقانون والسياسة، يوظف الأطر النظرية والمنهاجية السابقة في دراسة الظواهر الجديدة. كان بعضها يلعب دور التفكيك والتحليل والتفسير والنقد، والهدم للسائد والمسيطر من أفكار، وبعضها الآخر يهدم الأبنية الثقافية السائدة من أجل إحداث قطيعة معها، ثم تتبلور مفاهيم ونظريات وآلة اصطلاحية جديدة لتحليل الظواهر الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية والأدبية والفنية. من هنا ظهرت القطيعة المعرفية. كان ذلك يحدث في الموسيقى والمدارس الفنية، وفي الفلكلور، حيث تعاد صياغتها في بعض الأشكال الجديدة لتتناسب مع التحولات الاجتماعية، وفي المسرح، والسينما والغناء، والفنون التشكيلية والآداب، وفي المدارس والنظريات وأساليب المقاربة والتحليل. الفجوة بين الواقع المتغير وبين النظرية والمفاهيم والمصطلحات كان يؤدى إلى استخدام المنظومات التحليلية السائدة إلى أن يحدث القطع معها.

مع انهيار النظريات ما بعد الحداثية، ظهرت ما سبق أن أطلقت عليه عصر المابعديات والسيولة، الذي يجمع ما بين الماسبق المستمر، والجديد الذي لا يزال سائلاً في القيم والأخلاقيات والصداقة والحب والجنس والأسرة والزواج والعلاقات الموازية، وهو ما استطاع ببراعة عالم الاجتماع البريطاني من أصل بولندي زيجمونت باومان في كتبه عن عالم السيولة أن يوصف ويحلل عوالم السيولة، إلا أن مرحلة السيولة لا تزال مرحلة انتقالية ريثما تتبلور وتتشكل الظواهر الجديدة، في عالم السرعة الفائقة، حيث بدأت مؤشرات التحول من خلال الثورة الرقمية السريعة، وبدايات الذكاء الصناعي، وعالم الروبوتات، من هنا تبدو ملامح تحول جذري نحو القطيعة مع العالم الحديث وما بعده، وما بعد بعده، والرقمنة مع الذكاء الصناعي، نحو عالم مختلف، وشرط مغاير وُجُودِيًا للإنسان في الوجود والحياة.

مع التطور المذهل في عالم الرقمنة، والانتقال إلى مرحلة التفاعل بين الرقمي، والفعلي، تبدو مؤشرات التحول إلى عالم لأناسه الروبوتية، ثم إلى مرحلة ما بعد الإنسان في الطريق إلى هاتين المرحلتين الغارقتين في تاريخنا، تثور عدة أسئلة، أولها: حول الوضعية الإنسانية في تحولاتها في وجودها، وطبيعتها، وفعلها في الحياة، وأنماط تفاعلاتها.

ثانيها: أثرعمليات التحول المابعدية السائلة على الثقافة والمثقف في عالمنا؟

أدت التغيرات المناخية وظاهرة الاحتباس الحراري إلى طرح أسئلة حول علاقة الإنسان بالطبيعة، التي اتسمت بالاستغلال المفرط، لا سيما في ظل تحولات النظام الرأسمالي الكوني، في مرحلته النيوليبرالية المتوحشة، على نحو أدى إلى اختلالات جسيمة وخطرة على الحياة الإنسانية.

من ناحية أخرى، ظهور ردود أفعال طبيعية إزاء هذه الاختلالات من خلال ظواهر الاحتباس الحراري من ناحية. كذلك فإن ظهور الفيروسات المتحورة، مع فيروس كوفيد 19 المتحور كشف عن أن الحياة الإنسانية حول الأرض ليست قصرًا على الإنسان كفاعل اجتماعي وسياسي، وأن ثمة كائنات فيروسية، غير معروفة، لديها ردود أفعالها على التوحش الإنساني والاستغلال إزاء الطبيعة.

من هنا تبدو الأنظمة والسياسات الصحية في عالمنا في مأزق كبير في مواجهة الجوائح على نحو ما ظهر في جائحة كورونا المتحورة. لا شك أن التحورات الفيروسية تشير إلى مخاطر محتملة لجوائح فيروسية أخرى لا تزال غامضة، لكنها تمثل خطرًا ربما وُجُودِيًا على الرغم من تطورات العلوم الطبية والعلمية المهمة والسريعة.

إن أسئلة الشرط الإنساني بدت معلقة في الأفق الكوني، لكن الإجابات عليها فلسفيًا، ودينيًا لا تزال معاقة ومترددة ومفتوحة على مصراعيها بالنظر لأن طرحها وبعض الإجابات عليها يحتاج إلى بعض الوقت، خاصة أن الإجابات ستؤثر على ثقافات العالم المتعددة، حال تبلورها، وطرحها والنقاش حولها، وتمددها كونيًا.

من ناحية أخرى، لن يعود الإنسان مركز الوجود في الفلسفة وفي الفكر قبل التغير في بنى الأفكار الموروثة مع الحداثة، وما بعدها. لا شك أن ذلك سيؤثر على الحالة الدينية في عالمنا، بكل مكوناتها الدينية، والمذهبية، خاصة مع التحول إلى عالم لأناسه الروبوتية، وما بعد الإنسانية.

المكان/ البيئة/ الطبيعة، شكلت أهم العوامل في تطور بعض المجتمعات أو ثقافتها أو انعزالها، بل وساهمت وساعدت في فرض بعض أشكال الحكم والغلبة وكرست الثقافة السياسية السائدة من الحكم القبلي والعشائري وبعض الطرق اللارأسمالية باستثناء آسيا الناهضة إلى العودة إلى الطريق الرأسمالي، مع النيوليبرالية الوحشية والاستغلال المفرط للطبيعة وثرواتها ومواردها الأولية للبلدان الفقيرة، والمتوسطة، اهتداءً بالدول الكبرى الأكثر تطورًا في شمال العالم، واستغلال ثرواته الطبيعية بتواطؤات من نخبة السياسة الحاكمة التابعة. لا يقتصر الدور الملوث للبيئة والطبيعة، والاحترار الإيكولوجي قصرًا على الدول الرأسمالية الكبرى في شمال العالم، وإنما امتد إلى دول آسيا الناهضة حول الصين وكوريا الجنوبية، وسنغافورة وماليزيا، والهند... إلخ! لانتهاج هذه الدول في صعودها ذات الممارسات النيوليبرالية الغربية.

من هنا ارتكزت عمليات الاستغلال الوحشي للطبيعة على طبيعة الرأسمالية الكونية، في مرحلتها النيوليبرالية وسيطرتها على العالم، ومن ثم على ثقافة مركزية الإنسان في الكون والطبيعة التي تناسلت من الفكر الفلسفي الغربي. لا شك أن ثقافة الحداثة، والحداثة العليا- بتعبير هابرماس- التي شكلت الآفاق الثقافية الكونية- في ظل تعدد الثقافات التي استلهمت الحداثة أساسًا، طريقًا للانعتاق من أصفاد التخلف التاريخي البنيوي المركب في جذوره ومجالاته وأبعاده المختلفة. لا شك أن لا مبالاة بعض النخب السياسية الحاكمة ما بعد الكولونيالية، على اختلاف توجهاتها لم تكن على درجة من الوعي العلمي والسياسي، بأثر استغلال المواد الأولية، وعمليات توطين الصناعات الملوثة للبيئة بين الدول الأكثر تطورًا في الدول المتخلفة والنامية في آسيا، وإفريقيا، منذ عقود الستينيات والسبعينيات وما بعد في هذه البلدان وأثرها على التلوث البيئي والانبعاث الحراري، وأثره على النظام البيئي في هذه البلدان وعلي المستوى الكوني، سعيًا وراء النمو الاقتصادي في إطار رأسمالي نيوليبرالي.

ما أثر ذلك على الثقافة بمعناها العام الذي يمس القطاعات الاجتماعية الواسعة في هذه البلدان؟

تشكل ثقافة الغذاء من حيث مكوناته وذائقته، وطرائق عمله الموروثة، أو المستجدة جزءًا من الثقافة الوطنية في بلدان عالمنا، لا شك أن البلدان كثيفة السكان مع التفاوتات الاجتماعية، والانقسامات الطبقية الواسعة، تجعل الأغلبيات الشعبية المسعورة تركز على المأكولات الشعبية، ذات المكونات الأولية البسيطة، من الأرز والدقيق والتوابل، وبعض بقايا الطيور والحيوانات الأليفة والجارحة والأسماك وغيرها من مكونات الطبيعة. الاعتماد في إعداد هذه الوجبات على الطعم الذي يتم إضفاؤه على الوجبات ونوعية الطعام. بعض أساليب الطبخ موروثة، وبعضها مستجد، أو تطوير لطعم هذه الأكلات.

لا شك أن استخدام بعض الحيوانات والطيور والأسماك- أيًا كانت أنواعها- يؤدى إلى إيجاد خلل في التوازن البيئي بين مكونات الطبيعة، وبين الإنسان في هذه المناطق، وذلك لصالح ثقافة المطبخ التي ترمى إلى إطعام الغالبيات الشعبية المسعورة . مع تطور الأوضاع الاقتصادية، تظل تقاليد المطبخ سائدة، مع إدخال أضعاف جديدة تتماشى مع الذائقات السائدة في هذه الأوساط الاجتماعية المسعورة ، دونما نظر إلى بعض مخاطر هذه المكونات في ثقافة المطبخ على التوازن البيئي، ويؤدى ذلك إلى استمرارية بعض مكونات الخريطة المرضية للأمراض السائدة، وبروز أمراض جديدة، وذلك على نحو ما أشر إلى بعضه عن العلاقة بين بعض مكونات الأكل، ونقل فيروس كورونا المتحور في الصين كإحدى فرضيات نشأة المرض، وانتشاره الوبائي كجائحة في عالمنا.

في ظل الأديان والأساطير والرموز الوضعية السائدة في هذه البلدان- البوذية والهندوسية والهندوكية... إلخ- تبدو مسألة العلاقة بين الإنسان والطبيعة فرعية مقارنة بين العلاقة بين الإنسان، والآلة الوضعية، من ثم لا تدخل الطبيعة ضمن العلاقة المباشرة، مع الآلة، حتى في ظل الأديان السماوية، لأن الرب، أو الله، العلاقة مباشرة في الإسلام، لأن الرب خالق الكون وكل شيء- وأنماط التدين الشعبي القدري تجعل الطبيعة وتحولاتها هي جزء من هذا الإدراك الشعبوي السائد، من ثم لا تألو بالا بتحولاته الطبيعية أو الحفاظ عليها.

في المسيحية الكاثوليكية والإنجيلية، ثمة وسيط يلعب أدوارًا وظيفية، وغالبًا ما يكون جزء من خطابات بعضهم توظيف التدين الشعبي السائد، ومن ثم يستخدمونه في الوعظ والإرشاد الديني، ومن ثم يميل بعضهم مع هذا التوظيف نسْبيًا للتدين الشعبي السائد، وإلى الخلفيات الدينية الماورائية التي كانت سائدة قبل الكاثوليكية، والبروتستانتية، خاصة أن غالب للأكليروس في هذه البلدان من بين أبنائها.

السؤال الثالث: في ظل التحول إلى مرحلة لأناسه الروبوتية مع الذكاء الصناعي، والدور المتعاظم للروبوتات في التنظيم والتفكير، والعمل مع الإنسان! هل الروبوتات، بوصفها آلات، ذكية، تفكر، وتعمل من خلال التنظيم الإنساني في مراحلها الأساسية، ثم تحولاتها إلى التفكير الذاتي دون مدخلات معلوماتية بشرية، هل هذه المرحلة ما دور الدين في الضبط الاجتماعي، والضبط السياسي في بعض البلدان لا سيما الإسلامية؟ ما دور رجل الدين ومؤسساته الرسمية ولاهوته، في ظل أداء بعض الروبوت هذه الوظيفة بكفاءة؟ ما مستقبل هذه المؤسسات الوظيفي؟

بعض هذه الأسئلة ظهرت مع الاستنساخ الحيواني، الذي وقفت المؤسسات الدينية الكبرى في عالمنا ضده، وأيضا إزاء الاستنساخ البشري، الذي قاوموه بشدة وحزم ووقفوا مع الدول في منعه، لكن كما هي العادة تتم التجارب العلمية الكبرى في سرية- على نحو ما يتم في آسيا- قبل الإعلان عن نجاحاتها بعد عديد التجارب كما حدث تاريخيًا في التطور العلمي.

الأخطر أنَ هَذه الأسئلة ستزداد مع التحول إلى ما بعد الإنسان، سيطرح موضوع مكونات الديانات والعقائد.

من ناحية أخرى مع التحولات إلى الذكاء الصناعي والثورة الصناعية الرابعة سوف تزداد عمليات التحول من الاعتقاد الديني إلى الإلحاد، أو إلى اللاأدرية خاصة في بعض المجتمعات العربية الإسلامية، بل وداخل بعض الأقليات المسيحية، أو إلى أديان ومذاهب أخرى داخل الدين، ولا تزال الخطابات الدينية السائدة تعيد إنتاج ذاتها، وإيمانها المطلق بسردياتها وخطاباتها الوضعية التاريخية النقلية. نستطيع ملاحظة أن ثمة بعض التغيرات اللاهوتية في الإطار للبروتستاني، والكاثوليكي بعد مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، ومع البابا فرنسيس- الذي ولد باسم خورخى ماريو بيرجوليو البابا السادس والستين بعد المائتين من 13 مارس -2013 القادم من عالم لاهوت التحرير الأمريكي اللاتيني، بابا الفقراء.

المرجح أن صدمة عالم الرقمنة والذكاء الصناعي ولأناسه الروبوتية، ستؤدي إلى حركية ما في اللاهوت والفقه، وستؤدي إلى نهاية رجل الدين التقليدي النقلي، وستتقوض المؤسسات الدينية التعليمية الموروثة لصالح أشكال جديدة في التعليم الديني، مع بعض الاستمرارية لأشكال من التدين الموروث القلقة، وسط بعض الفئات الميسورة في مجتمعات جنوب العالم، لا سيما كبار السن، وبعض الشباب من الميسورين في الأرياف وهوامش المدن... إلخ.

لا شك أن هذه التغيرات ستؤثر على أحد مكونات الثقافة وفق التعريف التايلورى الواسع، وهي المعتقدات والرموز الدينية، وموروثاتها وتفسيراتها وتأويلاتها. في المرحلة الماء بعديه- بين الماء قبل وما الماء بعد بين السائد من موروث ما بعد الحداثة أو الحداثة العليا وفق هابرماس إلى ما بعد بعدها إلى مرحلة الذكاء الصناعي، ومؤشراتها وتقنياتها- ستكون مرحلة مخاضات عنيفة في الأفكار، ورفضها ويمتد العنف الرمزي إلى السلوك الاجتماعي لجماعات المؤمنين، وتبدو مظاهر الغلو الديني الناتجة عن رهاب الخطر المهدد للمعتقدات الدينية الوضعية الموروثة والسائدة وتأويلاتها القديمة والجديدة.

السؤال الذي نطرحه هنا أين نحن مصْريًا وَعَرَبيًا من هذا التغير والتحول القطَعي مع عالمنا، الذي كنا نحاول أن نلهث وراء تطوراته وأخفقنا؟

حالنا الديني/ الثقافي في وضعية مأومة من حيث جمود الفكر الديني النقلي الوضعي، وحامله المؤسسي، والجماعات، ناهيك عن اختراق الفقه النقلي المتشدد والطقوسي الشملاني على السلوك الاجتماعي، وعلى الفعل والاعتقاد الديني الإسلامي، واللاهوتى الأرثوذكسى وعجز السلطات الدينية عن ملاقاة عصور متغيرة.

التداخل بين أنماط التدين الرسمي السلطوي لرجال المؤسسة الدينية، والسلفيين والإخوان المسلمين، وتدين الراديكاليات الإسلامية الأخرى، تداخل مع التدين الشعبي، وَتَشكَّل نمط من التدين العنيف الشملاني الطقوسي الاستعراضي، وأقنعته وتجاوزه التدين الفردي الأكثر عمقًا، وتداخلت المرويات والأساطير، والثقافة الشعبية، وسرديات الأصول الدينية التأسيسية والتاريخية، في خلطة أدت إلى التغير في أنماط التدين الشعبي، وبعض الاعتدال الديني، باتت الإقصاءات لا تشمل المغاير دينيًا، بل والمغاير مَذْهَبيًا داخل ذات الدينَ، بَل وإلى المؤمن بذات الدين الذي لا يساير الذوات الجمعية الأخرى. ناهيك عن أنماط التدين الرقمي الاستعراضي الجديدة التي تداخلت مع هذه الأنماط الجديدة، وأثرت فيها، وفي مساراتها واستعراضاتها المختلفة. أصبح الاستعراض الديني الرقمي، والفعلى قناعًا يخفى الازدواجية والمخاتلة حول الذات الحقيقية، وسلوكياتها ومضمراتها الخفية فيما وراء الاستعراض الديني القولي والسلوكي وفي نظام الزي للمرأة، واللحى وتدين اللغة اليومية.

لا شك أنَ ثقافة الاستعراض الديني باتت تعبيرًا اختزاليًا عن هوية الفرد، وأيضا من مخاضات التغير الاجتماعي العسيرة، والمؤلمة، من تفكك النظام الأسرى وتراجع المنظومات القيمية السابقة الحضرية المزيفة أو الريفية المخلطة بالحضرية في الأرياف والبوادي على خصوصية الأخيرة، في مطروح وأولاد علي، وسيوة والواحات الداخلة والخارجة وفي مناطق حياة النوبيين بجنوب الوادي. بروز بعض العلاقات خارج الزواج، والطلاق المتزايد، والعلاقات الموازية، والعنف الأسري والخيانات الزوجية، والعلاقات الحرة دونما زواج بين بعض من أبناء الأجيال الجديدة. التغير في مفاهيم الصداقة من الواقعي إلى الصداقة الرقمية، ومن مفهوم زمر الرفاق الفعلية إلى زمر الرفاق الرقمية والتداخل بين كليهما في بعض الأحيان، تزايد حالات الخيانات الزوجية على نحو غير عادى مع عمليات التنصت من بعض الأزواج على بعضهم في المكالمات وعلى الرسائل... إلخ. ظواهر جديدة تحتاج إلى درس وتحليل إمبريقى لا يزال غائبًا عن البحث الاجتماعي، من ناحية أخرى أدى تدهور الأوضاع الاقتصادية والبطالة، وعسر الحياة، وارتفاع معدلات التضخم إلى تحريك مستويات ومؤثرات العنف الاجتماعي، والأسرى، وكلها تعبيرات عن بعض من انفصال السياسة والنخب السياسية الحاكمة، عما يجرى فيما وراء السطوح المجتمعية، وشكلياتها، ومظاهرها، وبعض طقوسها، وبين حنايا المجتمع وفئاته الاجتماعية المختلفة، وبما يؤثر على الثقافة بالمعنى التايلورى العام.

نقلا عن «الدستور المصرية »